

## مدخل ...

### استهداف الرعوس اليانعة

د. فادر سلسيلي

«الهجوم أفضل سبل الدفاع»، نظرية نابليونية أثبتت نجاحتها في ساحات القتال، بمثل ما أثبتتها في ساحات اللعب. فتبناها قادة عسكريون حاذقون، أرادوا أن يربحوا معاركهم على أرض أعدائهم، كما تبناها مدربو الكرة، الطامحون إلى حصد كؤوس البطولة، والصعود إلى منصة التتويج.

لما كان ذلك كذلك، وجدنا دولا عظيما تتبنى النظرية النابليونية، بعدما ألبستها ثوبا آخر (حتى لا تكون مضطرة للاعتراف للفرنسيين بحقوق الملكية الفكرية!)، أسمته: «الضربات الاستباقية الإجهاضية». وعلى الرغم من أن «بابا روما» يرى الإجهاض فعلا محرما، فإن «بابا واشنطن» لا يشاطره الرأي نفسه، جاعلا من الضربات الإجهاضية عقيدة إستراتيجية لإمبراطوريته، التي لا ينازعها أحد هيمنتها على العالم، شرقا، وغربا.

إلى ذلك رأينا «حاحامات تل أبيب»، يتبعون «أباهم»، الذي في البيت الأبيض على الدرب نفسه. وإن اختلفت الوسيلة، باختلاف العدو المستهدف. فرأينا في عدسة التصوير «الحاحامية»، رءوسا لقيادات فلسطينية، سياسية، وعسكرية، وثقافية، لا رءوسا لدول، كما هي الحال في العدسة الأمريكية. إذ أن الفلسطينيين لا يمتلكون دولة يمكن أن تستهدفها «إسرائيل»، فتحول التصوير، آليا، إلى الكوادر القيادية، التي بإمكانها أن تجعل من حلم الدولة حقيقة معاشة، على الوطن الذي يمتلك «حاحامات» واشنطن، وتل أبيب،

ومعهم «بابا» البيت الأبيض، إصراراً لا يحدد على أن يبقى نازقاً على «جلجلة إسرائيل». فيما نكتفى، نحن أهل الضحية، بمحاولتنا اليائسة، حتى لا نفرق في بحر الظلمات، الذى صنعته دموع مريم المجدلية على مسيحها «ال فلسطينى» المصلوب!

لا نذهب بعيداً عن فرنسا، ونابليوناتها، وأمثالها. فنسمع الفرنسيين يتمثلون بمقولة: «فتش عن المرأة». ما عد له المحققون الجنائيون، بخبراتهم، فيما بعد، ليصبح: «فتش عن المستفيد، تعرف الجناة». وعليه، تبعنا خيط الدم الفلسطينى السيل على الأرض الطهور، وخارجها، فوجدناه، فى كل مرة، وحين ينتهى التحقيق الهزلى إلى اعتبار الجانى مجهولاً، يصرخ مشيراً لهم بإبهامه الحمراء إلى المستفيد: يد مجرمة حولت اسم نبي الله يعقوب (إسرائيل)، من علم على الحكمة، اسماً لدولة، حفرت اسمها الدنس، بعظام ضحاياها، كصاحبة السجل الأكثر سواداً فى هذا المضمار. «دولة»، لا ترى بأساً فى أن تعمل وفقاً «مبدأ»، الحجاج بن يوسف الثقفى، فلا ترى فى كل قائد فلسطينى، أو ناشط فى المقاومة، سوى «رأس» فلسطينية، أينعت. وعلى «إسرائيل»، قظافها!

ما الذى يجمع بين الأسرى المصريين، الذين تم إطلاق الرصاص على بعضهم، فيما تكفلت المجنزرات بطحن عظام البعض الآخر، وبين الـ ٣٤ ضابطاً مصرياً الذين قضوا فى رحلة «مصر للطيران» رقم ٩٩٠، فى ٣١/١٠/١٩٩٩!، ما هو القاسم المشترك بين غسان كنفانى، والكمالين، ناصر وعدوان، ومحمد يوسف النجار، وخليل الوزير (أبو جهاد)، والإعلامية المصرية اللامعة سلوى حجازى، والصحافى البريطانى ديفيد هولدن، والصحافى الجزائرى محمد بوضيا، ود. أنيس صايغ، ود. عبد الوهاب الكيالى، والمقدم مصطفى حافظ، ود. سميرة موسى، ود. يحيى المشد، ود. جمال حمدان، ود. سلوى حبيب، ود. مؤيد حسن ناجى، ود. باسل الكيسى، وعالم الصواريخ الألمانى، فولفانج ميلز، وعالم الصواريخ المصرى د. سعيد بدير، وأهالى دير ياسين، وقبية، وكفر قاسم، والسموع، وجنين، وصبرا وشاتيلا؟! ود. ثابت ثابت، ويحيى عياش، وفتحى الشقاقى، وأبو على مصطفى، وحسين عبيات، وأطفال

مدرسة بحر البقر الابتدائية، فى دلنا النيل، وعمال مصنع «أبو زعل» ، ومعامل تكرير البترول فى الزيتية، بالسويس، والأطفال والعجائز الذين لجئوا إلى «الملجأ الآمن»!، التابع للأمم المتحدة فى قانا اللبنانية!؟

ما الذى يجمع بين كاتب مثل كنفانى، وشاعر مثل كمال ناصر، وباحثين مرموقين مثل صايغ، والكيالى، وعلماء أفاضل مثل موسى، وحمدان، وميلز، وبدير، ومذيعه وشاعرة رقيقة، مثل حجازى، وعمال أبى زعل، وأطفال قانا، وبحر البقر، وبين على حسن سلامة، قائد قوات الـ ١٧، وبين محمود أبى هنود، وصلاح شحادة، ورائد الكرمى، وبين اللورد موين، والكونت برنادوت!؟

إن ما يجمع بينهم كثير، لعل أول ما يجمع بينهم أنهم «بشر»، كرمه ربه، ومنح لحياته صفة القداسة، فجعل من قتل نفساً بغير حق، كأنما قتل الناس جميعاً. ويجمع بينهم أنهم شكلوا حلقات فى السلسلة الإجرامية، التى قام بـ «بطولتها» حفنة من أخط من ينتسبون، زوراً، إلى دنيا «البشر». يجمع بينهم أنهم لا قوا حتفهم بيد بدت فى إثمها، الذى لا تخجل منه، بل على العكس، تراه مصدراً للفخر!، علماً على العدوان، المستتر بدعاوى زائفة، وأحياناً مضحكة! كتلك التى سوغ بها مجرم الحرب الشهير، موشيه ديان، جريمته فى بحر البقر: «ربما كان المصريون يخفون أسلحتهم فى مدارس الأطفال»!!

على الدوام كان هناك نيسان / إبريل، حيث تزهر الأرض، بأمر ربها، فتبدو بستاناً مزداناً بالألوان، كل الألوان، فيما كان لحنه الأشرار، رأى آخر، بأنه نسبة للون الأحمر، إلى الحد الذى يرضى رغائبهم المريضة، ولا أسهل من أن يكون ذلك بدم عربى، ليس هناك أرخص منه، فى «شريعة» من يعتبرون العرب «صراصير فى زجاجات مغلقة»!

فى كل مجزرة، كان هناك نيسان، من دير ياسين (١٩٤٨)، إلى بحر البقر (١٩٧٠)، إلى الفردان (١٩٧٣)، إلى تونس (١٩٨٨)، إلى قانا (١٩٩٦)، وصولاً إلى جنين (٢٠٠٢). وفى كل مجزرة، فردية أو جماعية، كانت هناك

الدعوى المجرمة، التى تبرر اقتراف الإثم، الهاجس الذى يراه المجرمون «قدس أقداسهم»: الأمن. الذى يشبه الحرباء فى تلونه، فلا يثبت على حال، أو وصف.

ثمة سؤال يطرح نفسه ها هنا: هل نحن إزاء نسخ عن «دراكيولا»<sup>(١)</sup>؟! يحملون أسماء مغايرة: مثل شامير، وشارون، ونتاجهو، وباراك، وبيريس، ورايين، وموفاز، ومثير، وإشكول، وبن جوريون، وشاريت، وبيجن، وديان، وغيرهم. والإجابة: لا؛ لأن الاستنساخ لم يصل، بعد (وندعو الله ألا يصل، أبداً)، إلى استنساخ مصاصى الدماء. ما يجعل الاحتمال الأقرب إلى الواقع أننا إزاء «دراكيولات» آخرين، لا نسخ عن «دراكيولا»، يغتذون بالدم (أين منهم من أكلوا فطيرة العيد المعجونة بدم الأطفال فى باب توما، الدمشقى؟!)، ولا شىء سواه. خاصة لو كان هذا الدم «الشهى» ينزف من أدمغة منحتها المشيئة الإلهية، ما لم تهبه لسواها من بنى يعرب بن قحطان، الموهبة العلمية الفذة.

إن «إسرائيل»، التى تعرف جيداً كيف زرعت نفسها، ورماً سرطانياً فى الجسد العربى، تعرف - أيضاً - كيف تبقى فى هذا الجسد. ما جعلها لا ترى مستقبلاً لها إلا عبر دائرة تصويب، تتجه - بشكل آلى - إلى ما يمكن تسميته، على سبيل غير الساذج: كرات الدم البيضاء، (ما أقلها فى الجسد العربى، وبخاصة فى قلبه الفلسطينى)، التى تمثل الجهاز المناعى، الذى يقف حجرة عثرة، دون تمكن «إسرائيل» من افتراس ما تبقى من حيوية فى الجسد العليل، والاستفراد به، بعد تحييد أسلحته المناعية، المستولة عن مقاومة هذا السرطان، ومنعه من التمدد، فى مرحلته الأولى، ومن ثم الوصول إلى القضاء عليه، قضاءً مبرماً، فى مرحلة لاحقة، يستعيد معها الجسد العربى عافيته.

تدرك إسرائيل، هذا جيداً، ربما أكثر من كثيرين فى الوطن العربى، عملوا على إشاعة اليأس فى جنباته، وكأن «الهزيمة التاريخية» قدرنا، الذى لا نملك منه

(١) مصاصى الدم الشهير، الذى كان يغتذى من مص دماء ضحاياه. ورغم أن البعض يعتبره مجرد أسطورة، فإن رومانيا تحتضن قلعة دراكيولا، التى يؤمها السياح.

فكأكًا، فشعورها الطبيعي هو شعور اللص الذي لا يهنا له بال، ولا يستطيع التلذذ بما سطا عليه، إلا بعد تصفية كل ما من شأنه أن يعكر عليه «صفو» استمتاعه بما سلبه من أصحابه. وعليه، امتدت اليد الأثمة، التي سطت على فلسطين، لتغتال كل الزهور التي تفتح. فمن مصلحة «إسرائيل» أن يبقى الوطن العربي «صحراء لا تنبت الزهور». وإن كان ليس لديها ما يمنع أن تحول الصحراء، بفعل زخات السيل الذي لا يجد من يجعله ينفع الناس (مع وجود «قيادات»، تحتاج إلى من يقودها)، إلى مستنقع. عن يقين راسخ، بأن المستنقعات - كما الصحراوات - لا تنبت الزهور!

سجلت «إسرائيل» أهدافها كافة في مرمانا، الذي يبدو كما لو كان بلا حارس، يقوم بحمايته. ففي كل مرة، يفتح في الصحراء العربية نبت حسن يغفر لها، (ولنا) كل هذا الزبد الذي يذهب جفاء. ثمة يد «إسرائيل» التي طالت، حتى نالت من كل أوطان العرب، من خليجهم إلى المحيط، لتقطف أزهارنا النادرة. لتبقى حسرة فقدناها في قلوبنا، ومرارتها في حلوقنا. حتى تحفنا اليد «السخية» بضحية جديدة!

دعونا، الآن، نجرب القفز عبر أسوار الزمن الذي نعيشه، عائدین إلى الوراة قليلاً، وبالتحديد إلى العام الذي شهد بروز أحد المحاور الأهم للأيدولوجية الصهيونية، المستندة إلى التصور الديني اليهودي، متمثلاً في كلمة «جوى» بمعنى غريب، التي تجمع على «جوييم»، أى أغراب/ أغيار، وهم كل من عدا اليهود! حيث اكتملت دائرة الرؤية الثنائية الاستقطابية الحادة، التي تجعل من اليهود، واليهود فحسب، «معسكر الخير»، فيما كل من عداهم «محور الشر»، بتعبير الأصولى الإنجليكاني، جورج بوش الصغير!

إن تقسيم العالم إلى «يهود» و«جوييم»، يأخذ طابعاً إجرامياً، فى كلمات الحاخام موشيه بن صهيون، الذى يفسر «التلمود» بطريقة تسوُّغ القضاء على الفلسطينيين، واحتلال كل فلسطين «أرض إسرائيل»، كما يدعى. فيما «يتطوع»، حاخام القيادة المركزية الإسرائيلية، أبراهام أفيدان بالتأكيد لجنود جيش

الدفاع الإسرائيلي، على أنه «مصرح لكم، بل من واجبكم (!)، طبقاً للشريعة أن تقتلوا المدنيين، حتى لو كانوا من الخيرين» (!)، ولعل الأصبوب أن تكون العبارة «لأنهم من الخيرين»! وهذا ما لا ينسى الحاخام أن «يزين» به وطنية كل «جنود يهوه»، مقتطفاً ما ورد في «التلمود»: «ينبغي عليك أن تقتل أفضل الأغيار»، وهنا، نرى الحاخام وهو يقفز، كبطل في المائة متر حواجز، من مربع العنصرية، الذي كان مبتدأه، إلى مربع أكثر تعبيراً عن «روح إسرائيل»، الدنسة، هو مربع «الإبادة الشاملة».

لا ندرى هل هذا نزوع «خطري»، إلى العدوان، يأخذ على الصهائنة بمجامع نفوسهم، أم أنها «الأيديولوجية» الصهيونية، التي تعيد صياغة أرواحهم، على النحو الذي نراهم به الآن وكأنهم مجردون من كل ما يمت للإنسانية بصلة. بعدما خلعت الدعاية الصهيونية، التي تبرز كل منافساتها في كذبها القراح، التي تتسع دوائره، يوماً بعد آخر، حتى ابتلعت (هكذا خيل للصهائنة) وجود الشعب الفلسطيني، زاعمة أن فلسطين «أرض بلا شعب»، اختص بها الله عبر وعده المزعوم «شعبه المختار»! ما علق عليه، ساخرًا، بابا الأقباط في مصر، الأنبا شنودة الثالث بأن «اليهود احتلوا فلسطين بوعد من اللورد بلفور، لا بوعد من الله»!

هكذا غيب الفلسطيني، عمداً، عن المشهد، الذي يقع في بؤرته، وإذا حاول هذا الفلسطيني أن يثبت لمن يدعون غيابه أنه موجود، ليس هذا فحسب، بل يقاتل دفاعاً عن وجوده، فلا بأس من إصاق تهمة «الإرهاب» بالذي يدافع عن وجوده ضد من يحاول اقتلعه من جذوره. ومن ثم، تصبح الطريق ممهدة أمام تغييبه، عبر اغتياله، والأفضل أن يتم اغتيال «الرءوس» التي تقود الشعب الفلسطيني في نضاله المشروع، لنيل حقوقه، التي لا تسقط (كما الجرائم) بالتقدم. وهذا ما لخصه المعلق العسكري لصحيفة «هآرتس»، أليكس فيشمان، في معرض تعليقه على عمليات الاغتيال الميداني، التي طالت ١٧١ من نشطاء «انتفاضة الأقصى والاستقلال»: «لكي تتم تصفية (الخلايا السرطانية)، «يجب الوصول إلى الرأس». التي ينبغي حصدتها، أولاً بأول، حتى يبقى الشعب

الفلسطيني، ومعه الشعب العربي، الذي يعد ما يربو على ربع بليون «إنسان»، من دون رءوس. ومن ثم من دون عقول تبذع، وعيون تبصر مزالقي الخطر، وتتوقاها. ومن دون آذان تسمع وقع خطى القتلة، وهى تقترب لتقترب جريمتها. ومن دون ألسنة، تثير الوعي بالحق المسلوب، وضرورة المقاومة حتى آخر رمق، لاسترداده من يد مغتصبيه.

لا يعنى هذا أن الصهاينة يكتفون بقطف «الرءوس» الكبيرة لدى الشعب الفلسطيني، إذ لا يوجد ما يمنع من «تطعيم» وجبة مصاصى الدماء ببعض الدماء «العادية». مثل أولئك الفلسطينيين الخمسة، الذين اغتالهم جنود «جيش الدفاع الإسرائيلى»، بدم أبرد من ثلج سيبيريا، فى أحد مداخل البناية التى يقع فيها «بنك القاهرة- عمان». عاصمة الحل السلمى العرقوبى، يحمله لنا جودو، لا يجىء. خمسة رجال، ربما كانوا آخر من استطاعت أن تحوى حقاً منهم غرفة التبريد فى مستشفى رام الله، قبل أن يرص العشرات فى مقبرة جماعية فى «حديقة المستشفى!

لأن المريب، كما قالت العرب، يوم كانت الحكمة تندفق أنهاراً تروى صحراواتهم، «يكاد أن يقول خذونى»، سمعنا أحد ضباط وحدة المستعربين (دوفدبان)، التى تقف خلف معظم عمليات الاغتيال فى فلسطين المحتلة، يقول، بعد تسريحه: «لا يجب اعتباره (الفلسطينى المغدور به)، مغتالاً، أنا لست قاتلاً مأجوراً للمافيا! متناسياً بأن «دولته»، التى يوهم نفسه بأنه يخدم عرضها الدنس، هى علم على الإجرام. وطالما قدمت نفسها لقوى الهيمنة الغربية، وفقاً للقانون المافيوى الشهير: «بندقية للإيجار». وبالتالي، فضابط الدوفدبان، كما دولته، قاتل مأجور. من دون أن يمنع هذا من أن ينفذ عملية لحسابه الخاص، عندما يتطلب الأمر ذلك. فالذى يبتلع وطناً بأكملة، لن يغص بإنسان، أياً كان. ولن يعدم القاتل المأجور وسيلة قدرة، ليتم «مهمته»: وسيلة قد تتعاضم حتى تصل إلى صاروخ تطلقه الإف-١٦ (فخر شركة لوكهيد مارتن الأمريكية)، على سيارة نقل «الهدف»، وقد تتواضع حتى تصل إلى رسالة بريدية مفخخة.

لم تختلف «ذهنية» وسلوك قادة عصابات «الأرجون»، و«شتيرن»، و«هاجاناه»، عن قادة «دولة إسرائيل»، التي باهى باراك، ذات يوم، بأنها «فيلا وسط الأحرش (العربية)». فالفلسطيني، كما زعمت، «الرجل الوحيد في إسرائيل»، على حد وصف هنري كسينجر، للعجوز الشمطاء، جولدا مائير، «ليس له وجود». ومن ثم، فإن قتله «مباح»، بل «مطلوب»، طالما أن القتل من العقاب، بل يجد الصهيوني القاتل في نفسه «نشوة» الامتثال لتعاليم «الآباء»، يستوى في ذلك من يجدون أنفسهم أتباعاً لمنظر اليسار الصهيوني، دوف بير بورخوف (١٨٨١-١٩١٧)، الذي غادر إلى الجحيم، من دون أن تكتحل عيناه برؤية توقيع اللورد بلفور على «وعده» الشهير، وبين من يجدون أنفسهم، أكثر فيما نظّر له «نبي» التشدد الصهيوني اليميني المعروف، فلاديمير جابوتنسكى. وبين من يقتفون أثر جولدا مائير، التي قالت إن كراهيتها للعرب: «تعود إلى أنهم يجبرون الشباب (الإسرائيلي) على قتلهم»!

إن إشاراتنا التي لا تكل إلى المواثيق الدولية، التي قدست الحياة، وجعلت الحق في الوجود أحد الحقوق التي لا يمكن لأحد أن يمنع منها بنى البشر، دون تفسير، حتى يكون بمقدورهم التمتع ببقية الحقوق. تعنى أننا نستمسك بأهداف «مواثيق»، لا يحترمها العدو الصهيوني، ولا يلقي لها اعتباراً، كونها لا تساوى الورق الذي كتبت عليه (دعونا نفترض - جداولاً - بأنها تساوى ثمن الحبر الذي كتبت به). واحترامنا لهذه المواثيق لا يمنعنا من التأكيد على أنها لا تثير سوى الأسى، والمرارة، من دون أن تبث الطمأنينة في قلب الخائف، عندما يصادفه نص، لن يحميه من «الغول» الذي يترصده، في يقظته، وفي منامه.

ليسمح لنا القارئ بأن نطوف به في رحلة خاطفة، لن تستغرق أكثر من بضعة أسطر، نلقى خلالها نظرة سريعة على حيثيات الحكم الذي أصدرناه بحق الصهاينة. رغم يقيننا الكامل بأن «إسرائيل» لا تحتاج إلى «جرس» نعلقه في عنقها، حتى يتنبه العالم الغافل إلى جرائمها، التي زكمت روائعها الدنسة، أنوف الجميع. فالعالم، ودعونا نتواضع قليلاً، لنقول: معظم العالم، يعلم جيداً سجل «إسرائيل» الأسود، في هذا المضممار الدموي، الذي «لإسرائيل» فيه قصب

السبق . وإذا كان ثمة منافس لها فى هذا المضمار ، فما من شك أن هذا المنافس لن يكون سوى حليفها الإستراتيجى ( الولايات المتحدة الأمريكية ) ، فالعلاقات «الحميمة» بين «المؤسسة»<sup>(١)</sup> و«الشركة»<sup>(٢)</sup> ، أوضح من أن تحتاج إلى براهين لإثباتها . لأن القواسم المشتركة بين المجرمين سرعان ما تجمع (إن لم توحد) بينهم . ولم تخرج الموساد وال C.I.A عن هذا القانون ، كما فعلتا ، مراراً ، مع قوانين أدمنا انتهاكها . فالقانون الطبيعى ، بنصوصه التى لا تملك أن تغيرها أو القفز عليها ، ربما يكون القانون الوحيد الذى تجرى عليهما ، معاً ، أحكامه .

وعلى ذلك فلا نطمح أن يكون ما نكتبه هنا جرساً يوقظ النوم ، إن بالرغبة المجردة فى النوم ( التى يجد كثير من البشر أنفسهم فريسة لها ، من دون سبب يعزونها إليه ) ، أو بفعل «العقاقير المنومة» ، التى قد يتلعبها كثيرون ، فى شكل أفلام سينمائية ، ومسلسلات تليفزيونية ، ومقالات صحافية ، ومقابلات إذاعية ، وما إلى ذلك من «المخدرات الفكرية» .

هذا ما استطعنا تقديمه ، فى هذا المدخل ، الذى يبقى ، بعد كل شيء ، مجرد طريقة على الباب الموصل . فإن اكتفى البعض ، فحسبه ذلك ، وإن لم يكتف بعض آخر ، فليس ثمة بد من دفع الباب ، ليجد السبيل أمامه ممهدة ، وحياد الرحلة مسرّجة ، والله معه .

\*\*\*

(١) الموساد ، كما يطلق عليه العاملون فيه .

(٢) وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية C. I. A ، كما يحب العاملون فى الوكالة الإشارة إلى محل عملهم .

## الهوامش:

- ١- د. عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم أجتتماع المعرفة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٦، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٢، ص ٢٧٦-١٧٧.
- ٢- أليكس فيشمان، يجب الوصول إلى الرأس، هآرتس، ٢٧ / ٧ / ٢٠٠٢، وردت ترجمتها في: القدس العربي (لندن)، ٢٨ / ٧ / ٢٠٠٢.
- ٣- العربي (القاهرة)، ٢٣ / ٢ / ٢٠٠١.
- ٤- موسى البديري، الحوار الفلسطيني-«الإسرائيلي» من الانتفاضة إلى المفاوضات، مجلة الدراسات الفلسطينية (بيروت)، العدد ١٢، خريف ١٩٩٢، ص ١١٢.

\*\*\*